كارل ماركس ودعم التحرر العربي.

بقلم: مارسيلو موستو Marcello Musto

المصدر وتاريخ النشر: Karl Marx Supported Arab Liberation (jacobin.com).

ترجمة: علي الرواحي

في شتاء عام 1882، خلال العام الأخير من حياته، أصيب كارل ماركس بالتهاب شعبي حاد، وأوصى طبيبه بفترة راحة في مكان دافئ. تم استبعاد جبل طارق لأن ماركس كان بحاجة إلى جواز سفر لدخول المنطقة، وباعتباره شخصاً عديم الجنسية، لم يكن بحوزته جواز سفر. كانت الإمبراطورية الألمانية لأوتو فون بسمارك مغطاة بالثلوج ومحرمة عليه بأي حال من الأحوال. وكانت إيطاليا غير واردة لأنه، على حد تعبير فريدريك إنجلز، "الشرط الأول فيما يتعلق بالنقاهة هو أنه لا ينبغي أن يكون هناك مضايقات من قبل الشرطة".

أقنع إنجلز وبول لافارج Paul Lafargue، صهر ماركس، المريض بالتوجه إلى الجزائر العاصمة. في ذلك الوقت، تمتعت عاصمة الجزائر الفرنسية بسمعة كوجهة جيدة للهروب من قسوة الشتاء الأوروبي. وكما تذكرت إليانور ماركس ابنة ماركس لاحقاً، فإن ما دفع ماركس حقاً للقيام بهذه الرحلة غير العادية هو هدفه الأول: إكمال رأس المال.

عبر ماركس إنجلترا وفرنسا بالقطار، ثم عبر البحر الأبيض المتوسط بالقارب. وأقام في الجزائر العاصمة اثنين وسبعين يوماً، وهي المرة الوحيدة في حياته التي قضاها خارج أوروبا. ومع مرور الأيام، لم تتحسن صحة ماركس، لكن معاناته لم تكن جسدية فقط. لقد كان وحيداً جداً بعد وفاة زوجته وكتب إلى إنجلز أنه كان يشعر "بنوبات عميقة من الكآبة العميقة، مثل دون كيشوت العظيم". وبسبب تدهور حالته الصحية، غاب ماركس أيضاً عن ممارسة النشاط الفكري الجاد.

1) مقدمة الملكية الخاصة:

وبسبب سلسلة من الأحداث غير المواتية خلال إقامته، لم يتمكن ماركس أبداً من الوصول إلى أعماق الواقع الاجتماعي الجزائري. كما لم يكن من الممكن له أن يدرس خصائص الملكية المشتركة بين العرب، وهو الموضوع الذي كان يثير اهتمامه كثيراً منذ سنوات قليلة مضت.

في وقت سابق، في عام 1879م، نسخ ماركس، في أحد دفاتر ملاحظاته الدراسية، أجزاء من كتاب عالم الاجتماع الروسي ماكسيم كوفاليفسكي Maksim Kovalevsky، ملكية الأراضي الجماعية: أسباب تراجعها ومسارها وعواقبها. وقد خصصت المقاطع لأهمية الملكية المشتركة في الجزائر قبل وصول

المستعمر الفرنسي، وكذلك للتغييرات التي أدخلوها. نسخ ماركس من كوفاليفسكي ما يلي: "إن تكوين الملكية الخاصة للأراضي – في نظر البرجوازية الفرنسية – هو شرط ضروري لأي تقدم في المجال السياسي والاجتماعي". إن الحفاظ على المزيد من الملكية الجماعية، "كشكل يدعم النزعات الشيوعية في العقول، يشكل خطراً على المستعمرة وعلى الوطن على حد سواء".

انجذب ماركس أيضاً إلى تصريحات كوفاليفسكي التالية: "لقد واصل الفرنسيون نقل ملكية الأراضي من أيدي السكان الأصليين إلى أيدي المستعمرين في ظل جميع الأنظمة... الهدف هو نفسه دائماً: تدمير الملكية الجماعية للسكان الأصليين وتحويلها إلى موضوع للبيع والشراء الحر، وبهذه الوسيلة أصبح الممر الأخير أسهل في أيدي المستعمرين الفرنسيين.

وفيما يتعلق بالتشريع المتعلق بالجزائر الذي اقترحه الجمهوري اليساري جول وارنييه Jules Warnier ، أيد ماركس ادعاء كوفاليفسكي بأن هدفه الوحيد هو "مصادرة أراضي السكان الأصليين من قبل المستعمرين والمضاربين الأوروبيين". وذهبت وقاحة الفرنسيين إلى حد "السطو المباشر" أو تحويل جميع الأراضي غير المزروعة المتبقية للاستخدام المحلي إلى "ملكية حكومية". وقد تم تصميم هذه العملية لتحقيق نتيجة مهمة أخرى: القضاء على خطر المقاومة من قبل السكان المحليين.

مرة أخرى، من خلال كلمات كوفاليفسكي، لاحظ ماركس: "إن تأسيس الملكية الخاصة واستيطان المستعمرين الأوروبيين بين العشائر العربية سيصبح أقوى وسيلة لتسريع عملية حل الاتحادات العشائرية، حيث كان لمصادرة ملكية العرب التي يقصدها القانون غرضان: 1) تزويد الفرنسيين بأكبر قدر ممكن من الأرض، و 2) إبعاد العرب عن روابطهم الطبيعية بالتربة، وكسر آخر قوة للعشيرة. وبالتالي يتم حل النقابات، ومعالجة أي خطر يشكله التمرد.

وأشار ماركس إلى أن هذا النوع من إضفاء الطابع الفردي على ملكية الأراضي لم يؤمن فوائد اقتصادية ضخمة للغزاة فحسب، بل حقق أيضاً "هدفاً سياسياً: تدمير أساس هذا المجتمع".

2) تأملات في العالم العربي:

في فبراير 1882م، بينما كان ماركس في الجزائر العاصمة، ظهر مقال في صحيفة يومية محلية يوثق مظالم نظام الملكية الذي تم صياغته حديثًا. وكما ذكرت صحيفة الأخبار، كان بإمكان أي مواطن فرنسي في ذلك الوقت الحصول على امتياز لأكثر من 100 هكتار من الأراضي الجزائرية دون مغادرة فرنسا؛ يمكنهم أيضًا إعادة بيعها إلى أحد السكان الأصليين مقابل 40 ألف فرنك. في المتوسط، باع المستعمرون كل قطعة أرض اشتروها مقابل 20-30 فرنكًا بسعر 300 فرنك.

وبسبب اعتلال صحته، لم يتمكن ماركس من دراسة هذه المسألة. ومع ذلك، في الرسائل الستة عشر الباقية التي كتبها ماركس (فُقدت الرسائل الأخرى)، قدم عدة ملاحظات مثيرة للاهتمام من الحافة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط. إن الأشخاص الذين يبرزون حقاً هم أولئك الذين يتعاملون مع العلاقات الاجتماعية بين المسلمين.

لقد صدم ماركس بشدة من بعض خصائص المجتمع العربي. وعلق قائلاً: "بالنسبة للمسلم الحقيقي، فإن مثل هذه الحوادث، سواء كانت جيدة أو سيئة، لا تميز بين أبناء محمد. ولا تتأثر المساواة المطلقة في علاقاتهم

الاجتماعية. على العكس من ذلك، فقط عندما يفسدون، فإنهم يدركون ذلك. ويعتبر ساستهم، بحق، أن هذا الشعور وممارسة المساواة المطلقة أمر مهم. ومع ذلك، فإنهم سيذهبون إلى حالة من الفوضى والدمار بدون حركة ثورية".

في رسائله، هاجم ماركس بازدراء الانتهاكات العنيفة والاستفزازات المستمرة التي يرتكبها الأوروبيون، مستنكراً "غطرستهم المكشوفة وغطرستهم تجاه "السلالات الأدنى"، [و] الهوس المروع الذي يشبه هوس مولوك Moloch بالتكفير" فيما يتعلق بأي شيء يحث على فعل التمرد. وشدد أيضاً على أنه في التاريخ المقارن للاحتلال الاستعماري، "يتفوق البريطانيون والهولنديون على الفرنسيين."

وفي الجزائر نفسها، أبلغ ماركس إنجلز عن القاضي التقدمي، فيرمي Fermé، الذي تحدث معه عن «شكل من أشكال التعذيب...لانتزاع "اعترافات" من العرب، وهو أمر طبيعي (مثل الإنجليز في الهند) من قبل الشرطة. لقد أبلغ ماركس أنه "على سبيل المثال، عندما ترتكب جريمة قتل من قبل عصابة عربية، عادة مع السرقة، ويتم القبض على الأوغاد الفعليين بمرور الوقت ومحاكمتهم وإعدامهم، لكن هذا لا يعتبر تكفيراً كافياً من قبل عائلة المستعمر المصابة. إنهم يطالبون في الصفقة بـ"سحب" ما لا يقل عن ستة من العرب الأبرياء...عندما يسكن مستعمر أوروبي بين أولئك الذين يعتبرون "السلالات الأدنى"، سواء بصفته مستوطناً أو مجرد رجل أعمال، فإنه يعتبر نفسه بشكل عام أكثر حرمة من الملك.

3) ضد الوجود الاستعماري البريطاني في مصر

وبالمثل، وبعد بضعة أشهر، لم يقم ماركس بأي انتقادات فيما يتعلق بالوجود البريطاني في مصر. أنهت حرب عام 1882م، التي شنتها القوات البريطانية، ما يسمى بالثورة العرابية التي بدأت عام 1879م ومكنت المملكة المتحدة من إقامة محمية على مصر. كان ماركس غاضباً من التقدميين الذين أثبتوا عدم قدرتهم على الحفاظ على موقف طبقي مستقل، محذراً من أنه من الضروري أن يقاوم العمال الخطاب القومي للدولة.

عندما برر جوزيف كوين Joseph Cowen، عضو البرلمان ورئيس المؤتمر التعاوني - الذي اعتبره ماركس "أفضل البرلمانيين الإنجليز" - الغزو البريطاني لمصر، أعرب ماركس عن عدم موافقته التامة. وبطبيعة الحال، انتقد أيضاً الحكومة البريطانية قائلاً: "لطيف جداً! في الواقع، لا يمكن أن يكون هناك مثال صارخ على النفاق المسيحي أكثر من "غزو" مصر - غزو بهدف السلام!

لكنه وجه انتقادات خاصة لكوين "الراديكالي". في خطاب ألقاه في 8 يناير 1883م، في نيوكاسل، أعرب كوين عن إعجابه بـ "المآثر البطولية" للبريطانيين و"إبهار عرضنا العسكري". كما أنه لا يستطيع "أن يتصنع السعادة على الاحتمال الضئيل لكل تلك المواقع الهجومية المحصنة بين المحيط الأطلسي والمحيط الهندي، وفي إطار صفقة، إقامة "إمبراطورية إفريقية بريطانية" من الدلتا إلى كيب تاون".

لقد كانت في نظر كوين إمبراطورية على النمط الإنجليزي، تتسم بـ"المسؤولية" عن "المصلحة الداخلية". وفي السياسة الخارجية، خلص ماركس إلى أن كوين كان مثالاً نموذجياً «لأولئك البرجوازيين البريطانيين الفقراء، الذين يتأوهون وهم يتحملون المزيد والمزيد من «المسؤوليات» في خدمة مهمتهم التاريخية، في حين يحتجون ضدها عبثاً".

4) هل كانت لدى ماركس مركزية أوروبية؟

في وقت متأخر من حياته، انخرط ماركس في تحقيقات في المجتمعات خارج أوروبا وعبر عن موقفه بشكل لا لبس فيه ضد ويلات الاستعمار. ومن غير الصادق أن نقترح خلاف ذلك، على الرغم من مدى الموضة السائدة في الأوساط الأكاديمية الليبرالية "لتوبيخ ماركس" بسبب مركزيته الأوروبية.

خلال حياته، تابع ماركس عن كثب الأحداث الرئيسية في السياسة الدولية، وكما نرى من كتاباته ورسائله في ثمانينيات القرن التاسع عشر، أعرب عن معارضته الشديدة للقمع الاستعماري البريطاني في الهند ومصر، وكذلك للاستعمار الفرنسي في الجزائر. لم تكن لدى ماركس مركزية أوروبية، ولم يكن يركز اهتمامه فقط على الصراع الطبقي، كما يزعم كثيرون. اعتقد ماركس أن دراسة الصراعات السياسية الجديدة والمناطق "المحيطية" أساسية لنقده المستمر للنظام الرأسمالي. والأهم من ذلك أنه وقف دائماً إلى جانب المظلومين ضد الظالمين.